من يشكل عقل مصر.. وكيف؟

الاهرام المصرية　　　　　　الأحد 20 مايو 2007

د. عبد المنعم سعيد

اذا كانت المعارضة المصرية حين تتحدث عن المستقبل المصري تقع ـ علي حد تعبير الزميل والصديق عمرو الشوبكي في مقال بصحيفة المصري اليوم الغراء ـ في وهم الثورة الشعبية, واذا كانت قيادات الحزب الوطني الديمقراطي لا تقول لك الي أين يسير ويتجه القطار المصري, ولا شكل وموقع محطة الوصول, بقدر ما يقول لك عن المسافة التي قطعتها من نقطة البداية, فإننا لا نعلم علي وجه الدقة ما الذي تسعي إليه النخبة السياسية والفكرية في الحكم والمعارضة بين البداية والنهاية, وما بين الرحيل والوصول, ولكن, وربما لحسن الحظ, أن حركة المجتمعات نحو الزمن القادم لا تتقيد بالضرورة بما يفعله من هم في الحكومة أو من هم خارجها, بل بباقة كبيرة ممن اصطلح علي تسميتهم بأهل النخبة الفكرية والذين يشكلون عقل الناس والمجتمع والدولة بطرق متعددة.

ومنذ أسابيع قليلة أعدت مجلة التايم الأمريكية عددا خاصا عن المائة شخصية الأكثر تأثيرا في العالم, أو عن هؤلاء القادة والثوار والبناة وجبابرة السوق والفنانين والأدباء والعلماء والمفكرون والأبطال والرواد الذين يشكلون عقل العالم كله وليس دولة بعينها, ولم يكن معيار المجلة في اختيار الأشخاص ان تشمل القائمة من هم أكثر شهرة أو شعبية أو حتي لديهم من السلطة والقوة والمنعة والنفوذ ما يجعلهم يغيرون الأشياء والأمور, ولكن المعيار كان هؤلاء الذين يقدمون الأفكار والمخترعات والرؤي التي تغير نظرتنا للعالم وتلهم وتلهب أجيالا جديدة لكي تصنع مستقبلا مختلفا عما نعرفه بالفعل, المعيار هنا ـ كما قالت المجلة ـ يتعلق ليس بعناصر القوة الصلبة ـ المنصب أو المال أو النفوذ في السوق ـ وانما بعناصر القوة الناعمة للفكر والمعرفة.

وللأسف فإن أحدا في مصر لم يهتم كثيرا بهذا العدد من المجلة, ولا بالفكرة التي أتت بها حول هؤلاء الذين يشكلون العقل والوجدان, اللهم إلا من السخط والغضب علي أن القائمة تضمنت مصريا واحدا هو السيد عمرو خالد الذي لم يناقش أحد توجهاته وأفكاره, أو مدي التأثير الذي يحظي به في مصر والبلدان العربية, بقدر ما كان الاهتمام بأن وروده في القائمة كان اختيارا أمريكيا مقصودا, ومع ذلك فإن السؤال الأكثر أهمية, والذي لايزال باقيا وملحا, فهو عن تلك القائمة من مائة ـ أو أكثر أو أقل ـ من المصريين الذين يشكلون عقل ووجدان مصر الآن وفي أي اتجاه يفعلون, أم أن هناك اتجاهات متعددة متضاربة ومتناقضة, أو أن ما هو متاح من الأفكار في السياسة والاقتصاد والأدب والفنون ما هو إلا دعوة مستمرة للرجوع الي الخلف؟!

وبالطبع فإن فردا مهما كانت قدراته لا يستطيع الاضطلاع بهذه المهمة, ولكن حسبنا هنا القول أولا إن الفكر هو الذي يحدد توجه المجتمعات, وثانيا: أن هذا الفكر بقدر ما يتجسد في أشخاص بعينهم فإنه أيضا يظهر في شكل أنماط من التفكير التي تخترق المسافات بين مجالات العمل الانساني علي اختلافها وتنوع أشكالها, وفي الظن أنه في مصر الآن توجد ثلاثة أنواع من الفكر المشكل لعقل ووجدان الأمة, أولها فكر يقودنا الي الماضي ويريد إعادة انتاج هذا الماضي في الحاضر مرة أخري علي أساس أن ما مضي يمثل عصرا ذهبيا من نوع أو آخر, وثانيها فكر يقود الي الركود وبقاء الأحوال علي ما هي عليه ويقاوم التغيير بشراسة, فاذا ما اضطر إليه لأسباب داخلية أو خارجية, فإنه يكتفي بالشكل ويصرف النظر عن الجوهر, أو ينظر في قشرة الأمور ولا يمس قلبها, وثالثها فكر يؤدي الي الفوضي حيث لا تخوم ولا حدود ولا نظام, وانما غضب وحنق ورغبة في أن ينقلب عالي الأمة واطيها ذات صباح لا تغرب بعده شمس إلا والأمة كلها قد بدأت من جديد عند لحظة لا يعرفها أحد, وليس لدي

فرد أو جماعة فكرة واحدة عن مكوناتها.

الفكرة الأولي التي تعود بنا الي الماضي تظهر بجلاء ليس فقط في المرجعية التي تستخدمها كل القوي السياسية فتكون قبل أربعة عشر قرنا بالنسبة للاسلاميين, وخلال الفترة الناصرية في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي للناصريين, وهي قبل ذلك للوفديين بين1922 -1952, والفترة السوفيتية لدي الماركسيين بين1917 و1991, ولكن المرجعية لم تكن أبدا المشكلة فلكل الأفكار الكبري مرجعيتها التاريخية ولكن الفارق بين الفكر الحي والفكر الرجعي أن الأول يعرف ما الذي تعنيه المرجعية في عالم اليوم وفي ظروف اللحظة التي تغيرت فيها الدنيا في كل جوانبها, أما الثاني فإنه يعني محاولة إعادة إيجاد الماضي مرة أخري بشخوصه وأجوائه, ولا يمكن تفسير تلك الحالة من الافتتان لدي الوفديين بالدولة العلوية وتاريخ محمد علي, أو تلك الحالة من الوله والدروشة لدي الناصريين بكل ما يقول به الأستاذ محمد حسنين هيكل, أو الغضب الماركسي علي شخص جورباتشوف ويلتسين, إلا بحالة من الحنين والشجن لأزمنة قديمة لا يعرف أحد ما الذي يحل محلها علي وجه التحديد, وعندما شارك أعضاء الجماعة الاسلامية لأول مرة في نشاط سياسي وفكري فإن أولي النقاط التي سجلوها لم تكن حول مقاومة الفقر أو زيادة قدرة مصر علي التنافس في العالم المعاصر, وانما تسجيل نقطة في أن الديمقراطية لا تعني أكثر من مراقبة الحاكم في تطبيقه للشرع, وتسجيل نقطة إضافية أن المهمة الأولي للجماعة هي مقاومة أقباط المهجر, وفي الحالتين كان المطلوب هو العودة الي الأيام الطيبة الأولي.

الفكرة الداعية الي الجمود وبقاء الأمور علي ما هي عليه لا تقل شيوعا عن الفكرة الداعية للعودة الي الماضي, ومن الممكن أن تراجع حالة السخط الهائلة في مصر علي النظام التعليمي سواء من أولياء الأمور الذين يرون أن النظام التعليمي مرهق ومكلف وفاشل في تعليم ـ أو حتي تربية ـ أولادهم, أو رجال التعليم الذي يشكون الفقر وقلة الحيلة, أو رجال الأعمال الذين لا يسعفهم نظام التعليم بعمالة عالية الحرفية أو المهنية, أو الدولة التي لا تعلم ماذا تفعل بكل هؤلاء المتعلمين الذين لا يصلحون لشيء إلا الوقوف في طوابير البطالة, ولكن بعد هذه المراجعة المحزنة ما عليك إلا أن تبدأ في مناقشة الكيفية التي يتم بها اصلاح التعليم وتغييره واعادة بناء أسسه مرة أخري وساعتها سوف تجد ثورة هائلة, وغضبا عارما, بل لن تسلم ممن سوف يتهمونك بأن اصلاح التعليم ما هو إلا مؤامرة أمريكية وكونية للاعتداء علي العفة والهوية والخصوصية, وربما يصل الأمر الي اتهامك أنك من أتباع الفوضي الخلاقة أو غير الخلاقة لا فرق, وما يحدث في التعليم سوف يحدث في كل المجالات الأخري من الصحة الي المرافق الي الخروج الي الصحاري حتي القدوم الي الوادي, وعند النظر للدستور أو عند تجاهل الدستور, وعند صياغة القوانين أو عند كتابة اللوائح, فلا أحد يريد تغيير شيء علي الاطلاق برغم السخط علي كل شيء في نفس اللحظة, وعمليا فإن الجميع يتفقون علي بقاء الأحوال علي ما هي عليه وإلا فإن الأمر أمر له علاقة بخدعة أو بالتوريث أو بالعلاقات مع أمريكا, وكم كان مدهشا عندما راجعت رد جماعة الاخوان ـ المحظورة والمشروعة ـ علي بيان الحكومة, فإنني اكتشفت أن سياسات الجماعة المقترحة لا تزيد كثيرا علي السياسات التي تطبقها الحكومة بالفعل اللهم إلا عند المطالبة بعودة هذه السياسات الي ما كانت عليه في الستينيات.

الفكرة الثالثة تقودنا الي الفوضي الكاملة, وقوامها أنها تعرف كل شيء عما ينبغي هدمه, ولكنها لا تعرف شيئا علي الاطلاق عما ينبغي بناؤه من مؤسسات أو قيم, ولو ترك الأمر للقائمين علي هذه الفكرة فإنهم يريدون بين غمضة عين وانتباهتها أن يختفي من مصر كل ما نعرفه عنها سياسيا واقتصاديا علي الأقل, ولكنك بعد ذلك لن تعرف أبدا ماذا سوف يأتي بعد ذلك, فالرافضون للنظام السياسي لا يقولون لنا ان ما يريدونه بعد ذلك هو الديمقراطية, والرافضون للنظام الاقتصادي الخاص والعام يرفضونهما معا, الأول لأنه فاسد ورأسمالي مستغل, والثاني لأنه أيضا فاسد وتابع لدولة فاسدة, وبرغم أن الجميع في أجهزة الاعلام المناصرين لهذه الفكرة يهاجمون الفساد بعنف ويلصقونه بالدولة والمؤسسات والجماعات إلا أنك لن تعرف أبدا كيف يمكن مقاومة هذا الفساد وهل يكون من خلال قوانين ومؤسسات جديدة أو التغيير في سلطات مؤسسات قائمة, أو فقط إعدام من يظن الناس أنهم فاسدون في الميادين العامة دون محاكمة, وفي دول أخري فإن رفض ما هو قائم يرتبط دائما بتأييد ما هو قادم والذي يأخذ شكل أحزاب وأشخاص ومؤسسات وأفكار, ولكنك لن تجد مثل هذا في مصر أبدا حتي بالنسبة للجرائد الحزبية فلن تجد التفافا حول مرشح جديد للرئاسة مثلا, أو ترشيحا لحزب سوف يقوم بأداء أفضل, أو اقتناع لأفكار بعينها في السياسات العامة يتم تداولها والنقاش حولها, وكل ما ستجده سوف يكون

دعوة لانهيار النظام القائم وكفي.

وهكذا فإن ما هو متاح من أفكار يأخذنا الي الماضي أو يجمد بنا في الحاضر أو يدعونا الي سكة لا نعرف منها رجوعا, واذا كان ذلك ـ عزيزي القارئ ـ يدعو الي الاكتئاب, فانتظر حتي الأسبوع المقبل فربما يكون هناك ما يدعو الي الابتسام, فمصر ـ وصدق أو لا تصدق ـ تتغير بشدة!!.